اسم المادة الدراسية : الأدب الاندلسي

اسم المادة باللغة الانكليزية : Andalusia literature

(المحاضرة السادسة)

عنوان المحاضرة : شعراء الادب الاندلس .

التدريسي ولقبه العلمي : أ.د. محمد عويد محمد الساير

المرحلة الدراسية : الثالثة .

محاضرة : ٦

من شعراء الاندلس

. المعتمد بن عباد:

ولد المعتمد عام(٤٣٢هـ) بمدينة باجة واسمه محمد وكنيته ابو القاسم افضى اليه الملك بعد ابيه المعتضد وقد فاق اباه في صفاته فكان فارسا شجاعا وسخيا جواداً كما كان شاعرا مجيدا لم يلهه الملك عن قول الشعر حتى انه فتح ابوابه وخزائنه للشعراء ويعد المعتمد اقوى ملوك الطوائف وأبعده شهرة وقد استطاع ان يضم قرطبة الى ملكه وقد حقق في حياته السياسية كثيرا من الانتصارات يساعده في ذلك وزيره وشاعره ابن عمار ويبدو ان المعتمد سلك كل السبل في سبيل البقاء على مجده وتحقيق مطامحه حيث اتفق مع الفونسو حاكم قشتالة الاسباني للوقوف معه وإطلاق يده في مواجه من حوله من ملوك الطوائف ولكن اطماع(الفونسو جعلته يقف موقف الضد ويتعالى عليه ويشط في مطالبة من الجزية لذلك حاول هذا الحاكم ان يسحف الى قرطبة فبدى للمعتمد ان يستنجد بأحد ولاة المغرب وهوة يوسف بن تاشفين وحين حذره ولاته من ذلك قال (لئن ارعى الجمال عند ابن تاشفين خير من أن ارعى الخنازير عند (الاذفونش) ولئن يغدر بي ابن تاشفين مع رضاء الله خير من ان يقيني الاذفونش مع سخطه)

وقد تمت هذه المساعدة من قبل يوسف بن تاشفين وتصدى المسلمون للفرنجة في معركة الزلاقة وعاد المعتمد وابن تاشفين الى اشبيلية مكللين بالانتصار ويبدو ان المعتمد قد عاد الى سيرته الاولى الى العبث والمجون فاسخط ذلك المرابطين فأحاطوا به وكبله ابن تاشفين بالأصفاد واقتاده مع اسرته الى افريقيا حيث قضى عليه في (اغمات)وكان الصورة التي وصل اليها المعتمد قد جرت بصورة عكسية ففي حياته السابقة كان منغمساً في الترف والمجون وقد صور هذه الحياة في قصائد كثيرة فمن شعره في ذلك قوله :-

ولقد شربت الراح يستطع نورها

والليل قد مد الظلام رداء

حتى تبدى البدر في جـــــــوزائـه

ملكاً تناهى بهجة وبهاء

وتناهضت زهر النجـــــوم يحفـــه

لألأوهها فاستكمل الآلاء

وترى الكواكب كالمـــــــواكب حوله

رفعت ثرياها عليه لواء

انه يصف الخمرة وقد تألقت بين يديه ببريقها وسط الظلام وهو ما زال يعاقرها حتى ارتفع

االمعتمد بن عباد

لقمر وجلس يزهو على سدة الملك وقد هرعت النجوم لاستقباله وراحت تحف به وتستطع بلألائها عليه كل ذلك كان في موكب سماوي جميل رأى الشاعر فيه كذلك البدر يحف به ايضا الندماء والغلمان وتتمايل من حوله الجواري الحسان فإذا هو في سكرين من رحيق الخمرة وسحر الجمال وهذه اللوحة التي يرسمها هي كأغلب الشعر الاندلسي لا تنطوي على عمق ولا تحفل بالغوص على المعاني والصور ، وهي تحمل في الوقت نفسه خصائص هذا الشعر الاندلسي الذي استوت شخصيته واتضحت ملامحه فأخذ يجنح الى الصور القريبة كتشخيص البدر ملكاً والنجوم حشماً وتشبيه الظلام بالرداء وقد ال على نفسه وكان حريصاً ايضاً على الزخرفة التي تقتضيها حياة الترف كالمجانسة بين اللألاء والالاء وبين الكواكب والمواكب وبين السنى والسناء وربما كان ايضاً من خصائص الشعر الاندلسي هذا التمازج بين الشاعر والطبيعة حتى ترى ان الشاعر

حينما غمرته النشوة اصبح هو والبدر شيئاً واحداً

ولكن هيهات ان تدوم ايام السعد لقد وقع ما قد حذره منه بعض انصاره حينما منعوه من الاستنجاد بالمرابطين فكان بين امرين كالمستجير من الرمضاء بالنار فأذا به يحمل سيفه من دون درع ولا أعوان .

لقد حسم الامر واتسع الخرق على الراقع ولا سبيل إلا ان يؤتى به اسيراً بعد مقتل ولديه الراضي والمعتد الى عدوه المغرب مع زوجه وبناته فيقول ذاكراً ذلك اليوم :

لما تماسكت الدمـــوع وتنهه القلب الصريـــــع

قالوا : الخضوع سياسـة فليبد منك لهم خـــضوع

فقد رمت يـوم نزالـــهم الا تحصنني الـــــــدروع

وبرزت وليس سوى القميـ ص عن الحشا شي ء دفوع

وبذلت نفسي كـــي يسيـ ل اذ يسيل بها النجيـــع

أجلي تأخر لم يكـــــن بهواي ذلي والخشـــــوع

لقد انطوت تلك الابيات على شعر ذاتي يتسم بالأصالة ويرصد قرارة التجربة وينم عن نفس ملحمي طفيف اضافة الى الطابع القصصي ايضاً وطبيعي في مثل هذه الحال من الاستغراق الشعوري إلا يكون للفكر حيز كبير في بنية القصيدة وان لا تنطوي القصيدة تبعاً لذلك على المحسنات والسعي الى الصور ربما يكشف هذا البحر المجزوء بقصر تفعيلاته عن اضطراب الاحوال التي كان الشاعر فيها ولعل هذه المرحلة الاخيرة من مراحل حياته على قصرها اكثر مراحل حياته عطاء للشعر كان اقل شيء يهيج في نفسه الشوق ويبعث الذكرى فقد اجتاز يوماً عليه في أسره سرب قطا فأهاج وجده وأثار لواعج الشوق عنده فقال :

بكيت الى سرب القطا إذ مررن بي

سوارح لاسجن يعــوق ولا كبل

هنيئاً أن لم يفرق جميعـها

ولاذاق منها البعد من اهلها أهل

فالمعتمد في ابياته يغبط الطير على ما تنعم به من حرية اذ لا يكدر عيشها سجن ولا قيد ولا ينقص ايامها بعد ولا فراق وتضرب شمس ولا تطلع شمس وتدخل على ابن عباد بناته في يوم عيد فلما رآهن في الأطمار الرثة وقد بدت عليهن آثار الفاقة فراح يناجي نفسه:

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً

فساءك العيد في أغمات مأسورا

ترى بناتك في الاطمار جائعة

يغزلن للناس لا يملكن قطميرا

يطأن في الطين والأقدام حافية

كأنها لم تطأ مسكاً وكافـــــورا

قد كان دهرك ان تأمره ممتثلاً

فردك الدهر منهياً ومأمـــــوراً

وهكذا ألف الشاعر الملك السجين حياة الحزن ولم يعد لديه من سلوان سوى اطياف الذكرى يستعيدها ويبكي غامرها كما في قوله :

غريب بأرض المغربين أسيـر

سيبكي عليك منبر وسرير

وتندبه البيض الصوارم والقنا

وينهل دمع بينـهن غـــرير

فياليت شعري هل أبيتن ليـلة

أمامي وخلفي روضة وعبير

وكان طبيعياً ان تجنح نفس الشاعر المرهفة الى التأمل والتفكير اذ طال عليها الامل في غمار اليأس والاسى فتغدو ذات نظرات نافذه نحو الدنيا تطفح بالموعظة والاعتبار وهكذا جاءت الحكمة في ذهن الشاعر بعد ان تخمرت الاحزان في نفسه

قبح الدهر فماذا صنعاً كـــــل ما أعطى نفساً نزعا

قل لمن يطمح في نائله قد أزال اليأس ذاك الطمعا

لقد ساءت احوال المعتمد وشعر ان منيته آتية فراح يرثي نفسه قيل حسن الرثاء ومن ذلك قصيدة قالها وأوصى ان تكتب على قبره ومنها:

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي

حقاً ظفرت بأشلاء أبن عباد

نعم هو الحق حاباني به قدر

من السماء فوافاني لميعادي

ولم أكن قبل ذاك النعش أعلمه

أن الجبال تهادى فوق أعوادي

كفاك فارفق بها استودعت من كرم

رواك كل قطوب البرق رعاد

توفى المعتمد عام (٤٨٨ هـ) ولما كان اول عيد بعد وفاته قدم الى اغمات الشاعر ابو بحر عيد الصمد وقد وقف عند قبره قائلا:-

ملك الملوك أسامع فأنادي

أم قد عدتك عن السماع عوادي

لما خلت منك القصور ولم تكن

فيها كما كنت فـــــــي الأعياد

أقبلت في هذا الثرى لك خاضعاً

واتخذت قبرك موضع الانشاد

يأيها القمر المنير أهكذا

يمحـــــــــــى ضياء النير الوقاد

ماكان ظني قيل قبرك أن أرى

قبراً يضم شوامـــــــــخ الأطواد

واذا كان ولا بد كما يرى غريسة غومس – من تصوير المحنة العامة التي شملت الشعر خلال ذلك العصر في صورة شخص واحد من أهله فليس أوفق لذلك من المعتمد صاحب ابن خفاجة اشبيلة فكان ابوه وابناءه كلهم شعراء ولكنه ابرزهم جميعاً لانه كان يمثل الشعر من ثلاثة اوجه :-

اولها:- انه كان ينظم شعر يثير الاعجاب

الثاني :- ان حياته نفسها كانت شعراً حياً

الثالث:- انه كان راعي شعراء الاندلس اجمعين في عصره فكان من الشعراء الذين عرفهم او تكاتبوا معه او رثوه ابن زيدون وابن عمار وابن لبانه وغيرهم.

الحكم الربضي :

وهو حفيد بن عبد الرحمن الداخل ويلقب بالربضي نسبة الى حادثة الربض التي استطاع خلالها ان يقضي على فتنة كادت تؤدي به قام بها المولدون في ظاهر قرطبة قد عرف بنزعته نحو التحرر وميله الى اللهو وولعه بالصيد ومن ناحية اخرى كان كجده عبد الرحمن الداخل حاكماً حازما اضف الى ذلك كان ادبيا وشاعرا وأدبه على قلته يعكس حياته الحافلة بالإحداث ومما تضمنته شعره من فخر ويأس ما قاله في حادثة الربض يقول:

رأبت صدوع الارض بالسيف راقعاً وقدماً لئمت الشعب مذ كنت يافعا

فسائل ثغوري هل بها اليوم ثغرة أبادرها مستنضي السيف دارعـــــا

ولما تساقينا سجالا حـــــروبنا سقيتهم سما من الموت ناقـــــعا

وهل زدت أن وفيتهم صاع قرضهم فوافوا منايا قد قـــــدرت ومصارعا

فهاك بلادي انني قـــــد تركتها مهاداً ولم أترك عليها منازعـــــا

الشعب : بمعنى الصدع يقول ان هذا ديدنه فهو حازم وفارس يقضي على اي فتنة تحدث. وهذا

الشعر يجمع ايضا بين الحماسة والفخر وهو من تقاليد الشعر العربي الذي تعارفنا علية في المشرق وينطوي على ما ينطوي عليه هذا الشعر من معاني وأخيلة اصبحت رواسم يرتسمها الشعراء في المشرق والمغرب ايضا وذلك من مثل تبادل الدلاء في الحروب وسقي العدو السم الناقع ثم ارتداد هؤلاء الذين ارادوا الكيد الى كيدهم ليذوقوا الموت الذي حاولوا ان يذيقوه لهم وهذا الأمير الشاعر المحارب يغدو رقيقا وادعا يتجه الى التعبير عن عواطفه الذاتية ومع ذلك تبدو ملامح شعره يسودها الإباء والأنفة والاغترار بعزة الملك من خلال ما يقوله. فمن قصيدة له في الغزل يقول:

ظل مـــــن فرط حبّه مملـوكا وقـــد كان قبل ذاك ملـيكا

ان بكى أو شكا الهوى زيد ظلماً وبعاداً يدنـي حماماً وشيـــكا

تركته جآذر القصـر حبيـــــساً ومستهيماً على الصعيد تريكـا

يجعل الخد راضياً فـــوق ترب للذي يرضـى الحـــرير أريكـا

هكذا يحسن يحسن التذلل بالحر اذا كـان في الهوا ممـــــلوكـا

الجؤذر: ولد البقرة الوحشية يبدو من خلال ذلك ان سمات شعره تبدو عليها المبالغة سواء في فخره او غزله فهو يجنح الى اظهار غاية القسوة واليأس في حماسته كما يجنح في مقابل ذلك الى اظهار التودد والتلطف في غزلياته وقد تكون هذه الامور مستمدة من طبيعة شخصيته ولا بأس ان يتضاءل امام سلطان الحب .

عباس بن ناصح الثقفي:

من شعراء هذه الفترة من اهل الجزيرة الخضراء رحل الى المشرق مع ابيه ولقى ابا نواس وكان منقطعا الى التجديد فشعره موزع بين المديح والفخر والحماسة وكان مديحه ينحو منحى تقليديا كما في قولته مادحا الحكم الربضي.

تململت في (وادي الحجارة) مسهداً أراعي نجوماً ما يردن تغيرا

اليك ابا العاصي نضيت مطيتـــــي تسير بهمّ سارياً ومهجّـــرا

والشاعر كأنما يصف ليله بالطويل وكأنه يريد ان يذهب الى الممدوح وقد اتعب مطيته في الليل والنهار.

حسانة التميمية: من النساء الشاعرات وقد مدحت الحكم الربضي ومن بعده ابنه عبد الرحمن الاوسط ومما قالته في الحكم الربضي بعد موت ابيها(ابو المخشي)قولها:

أنت الامام الذي انقاد الانام لـه ... وملّكته مقاليد النهى الامـــــمُ

لاشي أخشى اذا ما كنت لي كنفاً ... آوي اليه ولايعرونيَ الـــــندم

لازلت بالعزة القعســـــاء مرتدياً ... حتى تُذل اليك العرب والعجم

الملاحظ على هذه الابيات انها تنحو منحى تقليديا في ادائها وهذا مايعكس بطبيعة الحال تلك الرؤى المشرقية التي يزاولها هؤلاء الشعراء وهي على كل حال تنم على شخصية قائلها اذا تتجلى فيها حرارة طبيعة تلك المرأة من حيث انوثتها وضعفها ورقتها وإحساسها

اعوراراً وكان هشام أحول فنقم عليه لذلك فقطع جزءاً من لسانه وسمل عينيه فبقي عالة على زوجته التي كانت عاجزة ايضا لذلك راح يصف مأساته قائلاً:

وأم بنياتي الضعيف حويلها ... تعول أمرءاً مثلي وكان يعولها

اذا ذكرت ما حال بيني وبينها ... بكت تستقيل الدهر ما لا يقيلها

النثر:

ليس بين أيدينا من نثر تلك المرحلة ما يمكن أن يعتد به إذ كانت تلك الفترة من حياة العرب الأدبية في تلك البلاد غير متضحة المعالم لعدم استقرارهم إذ يحتاج النثر غير الذي يحتاجه الشعر فما وصل موثقا بالرغم من الشكوك التي تدور حوله تلك الخطبة التي ألقاها القائد البربري الذي عبر إلى الأندلس وحين استقر به المقام وأراد البدء باجتياح تلك البلاد،قال طارق بن زياد مخاطبا جنوده:

" أيها الناس الى اين المفر البحر وراءكم والعدو امامكم فليس لكم والله إلا الصدق والصبر فأنهما لا يغلبان وهما خيران منصوران لا تضر معها قلة ولا ينفع معهما الحذر والكسل

والاختلاف أيها الناس ما فعلت من شيء فافعلوا مثله ان حملت فاحملوا وان وقفت فقفوا وكونوا كهيئة رجل واحد في القتال واني صامد الى طاغيتهم لا أتهيبه حتى اخالطه أو أقتل دونه فلا تهنوا ولا تنازعوا أن قتلت فتفشلوا وتذهب ريحكم وتولوا الادبار بعدوكم فتبيدوا بين قتيل ومأسور وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات بالدر والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان والمقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الابطال عرباناً ورضيكم لملوك الجزيرة أصهاراً وأختاناً "

تقترن هذه الخطبة بحدث مهم من تاريخ الاندلس من جهة ومن جهة أخرى اتصالها بشخصية من الشخصيات البارزة في التاريخ الاسلامي فإذا صحت نسبتها الى طارق بن زياد فستكون اقدم نص نثري أدبي قد وردنا من ذلك العهد والغريب ان الخطبة لم ترد في مصادر التاريخ الاندلسي المبكر التي تناولت تفصيلات دقيقة عن فتح الاندلس باستثناء النص الذي اورده عبد الملك بن حبيب (ت ٢٣٨ هـ) في كتابه (استفتاح الاندلس) والنص الذي أورده أبن قتيبة (٢٧٦ هـ) في كتابه الامامة والسياسة وروايتها للخطبة تختلف اختلافا بيناً عن النص المتداول وأقدم رواية للخطبة جاءت عند مؤرخ مشرقي هو ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ) ويبدو أن صاحب النفح نقل عنه وأستهل الخطبة بقوله :(قال بعض المؤرخين) , وقد وقف عدد من الباحثين من الخطبة موقف الشك ومن هؤلاء الدكتور هيكل في كتابه (الادب الاندلسي) وكذلك الدكتور عبد الرحمن الحجي ومن اهم عوامل الشك في تلك الخطبة هو أن المصادر الاندلسية القديمة لم تذكر تلك الخطبة فضلاً عن ذلك فأن هنالك عوامل تاريخية وفكرية وأخرى فتية تتصل بأسلوب الخطبة وهذه العوامل تجعلنا نشك في رواية ابن خلكان لها وأما الادلة التاريخية فهي على النحو الاتي:

١. عدم تلاؤم المعاني التي جاءت في الخطبة مع الروح الاسلامية العالية التي تحلى بها القائد وجنده فليس بالخطبة إشادة بدوافع الفتح والحث على طلب الشهادة كما هو معهود في الخطب التي تحث على الجهاد إذ من غير المعقول ان يغري القائد جنوده بالمغريات المادية في مقام يستدعي بذل الارواح في سبيل الله.

٢- ترد في الخطبة معلومات تاريخية خاطئة فقد جاءت كلمة اليونان وربما جاءت الكلمة خطأ لتحقيق السجع وكان المعتاد ان يذكر الرومان أو القوط او غيرهم في هذا المقام باعتبار ان هؤلاء يمثلون عنصراً مهما من عناصر المجتمع الاسباني.

٣- حداثة طارق بن زياد بالإسلام لا تتيح له هذه البلاغة والبراعة في الخطبة ولاسيما ان العربية كانت جديدة عليه فالغالب أنه بربري ويبدو أن أباه قد أسلم أيام عقبة بن نافع وخلفه ابنه هذا فقد دخل في خدمة ولاة المسلمين وكان صغير السن حينما عهدت اليه هذه المهمة

٤- من الاخطاء التاريخية ايضا ان الوليد بن عبد الملك كما تذكر الخطبة قد اختارهم عريانا والصواب ان موسى هو الذي أختار هؤلاء وان نسبة المشاركين من البربر كانت هي الغالبة

اما ما يتعلق بالجانب الفني لتلك الخطبة فيمكن أن نصفه على النحو الاتي :

١- أن الخطبة لا تنسجم في أسلوبها وخصائصها الفنية أن يكون طارق صاحبها لطولها من ناحية ولاعتمادها على السجع المتكلف من ناحية أخرى. فالصفة الغالبة على خطب القرن الاول الهجري هو ألإيجاز والتركيز وأما السجع المتكلف فهو من خصائص القرون المتأخرة كما يتفق على ذلك أغلب الدارسين وما يأتي من السجع في العصور الاولى يكون من قبيل عفو الخاطر ولا يكون متكلفاً على النحو الذي وجدناه في هذه الخطبه .

٢ – يفترض ان تتضمن الخطبة اقتباسات قرآنية مباشرة على نحو ما موجود في خصائص النثر في القرن الاول الهجري اذ بدت هنا خالية من هذه الاقتباسات . وخلاصة القول أنه لا يمكن أن ننكر هذه الخطبة وأن طارق قد ألقاها في جيشه قبل المعركة بل نجد مثل هذا الامر طبيعيا ومنسجماً مع تقاليد الجهاد ولكن من المرجح أن الخطبة التي قالها طارق غير الخطبة التي وردت الينا في كتب المتأخرين ولعل النص الذي أورده عبد الملك بن حبيب هو أوثق النصوص اذ قال :(فلما بلغ طارقاً دنوه منه قام في أصحابه فحمد الله وأثنى عليه ثم حض الناس على الجهاد ورغبهم في الشهادة ثم قال (ايها الناس اين المفر والبحر من ورائكم والعدو أمامكم ؟ فليس لكم والله إلا الصدق والصبر , ألا واني صادم طاغيتهم بنفسي لا أقصر حتى اخالطه أو أقتل دونه) .

المصادر والمراجع :

- الادب الاندلسي : د. منجد مصطفى بهجت ، دار الكتب والوثائق – الموصل ، ١٩٨٦.
- الادب الاندلسي : د. مصطفى الشكعة ، دار العلم للملايين – بيروت ، ١٩٨٨.

- تاريخ الاندلس : د. عبد الرحمن علي الحجي ، دار القلم – دمشق ، ١٩٩٠ .
- دواوين الشعراء الأندلسيين :
  - ديوان ابن زيدون .
  - ديوان الاعمى التطيلي .
  - ديوان ابن اللبانة .
  - ديوان المعتمد بن عباد .
  - ديوان ابن الجنان الانصاري.
  - ديوان ابن خفاجة .
  - ديوان ابي البقاء الرندي .
  - ديوان ابن دراج القسطلي .
  - ديوان ابن عمار الاندلسي .
- كتب الأدب الاندلسي ومختاراته :
  - مطمح الانفس ، لابن خاقان .
  - قلائد العقيان ، لابن خاقان .
  - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، لابن بسام .
  - الاحاطة في اخبار غرناطة ، للسان بن الدين الخطيب.
  - نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، للمقري التلمساني .